بسم الله الرحمن الرحيم

١-كتاب بدء الوَحي

قالَ الشَّيخُ الإمامُ الحافظُ أبو عَبدِ اللهِ محمدُ بنُ إسماعيلَ بنِ إبراهيمَ بنِ المُغيرَةِ البُخاريُّ رحِمَهُ اللهُ تَعَالى آمينَ

١-باب كيف كانَ بدْءُ الوَحْيِ إلى رسول ِاللهِ ﷺ

وقولِ اللهِ جَلَّ ذِكْرُهُ {إنَّا أوْحَيْنَا إليكَ كَمَا أوْحَيْنَا إلى نُوحٍ والنَّبِيِّينَ من بَعْدِهِ}.

قوله (بدء الوحي) والوحي لغة الإعلام في خفاء. وشرعا الإعلام بالشرع وقد يطلق الوحي ويراد به اسم المفعول منه أى الموحى، وهو كلام الله المنزل على النبي ﷺ.

١-عَنْ عَلْقَمَةَ بنِ وقاصٍ اللَّيْثي قال: سمعتُ عمرَ بن الخَطّابِ رضيَ اللهُ عَنْهُ على المِنْبَرِ قالَ: سَمِعْتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ: «إنَّمَا الأعمالُ بالنِّيَّات،وإنَّمَا لِكُلِّ امْرِىءٍ مَانَوَى: فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إلى دُنْيَا يُصِيبُهَا، أوْ إلى امْرَأةٍ يَنْكِحُهَا، فَهِجْرَتُهُ إلى مَا هَاجَرَ إلَيْهِ».

[الحديث ١- أطرافه في:٥٤ ، ٢٥٢٩ ، ٣٨٩٨ ، ٥٠٧٠ ، ٦٦٨٩، ٦٩٥٣]

قوله(حدثنا الحميدي) هو أبو بكر عبد الله بن الزبير بن عيسى، منسوب إلى حميد بن أسامة بطن من بني أسد ابن عبد العزى بن قصي رهط خديجة زوج النبي ﷺ، يجتمع معها في أسد ويجتمع مع النبي ﷺ في قصي. وهو إمام كبير مصنف، رافق الشافعي فى الطلب عن ابن عيينة وطبقته وأخذ عنه الفقه ورحل معه إلى مصر، ورجع بعد وفاته إلى مكة إلى أن مات بها سنة تسع عشرة ومائتين، فكأن البخاري امتثل قوله ﷺ «قدّموا قريشا» فافتتح كتابه بالرواية عن الحميدي لكونه أفقه قرشي أخذ عنه. وله مناسبة أخرى لأنه مكي كشيخه فناسب أن يذكر في أول ترجمة بدء الوحي لأن ابتداءه كان بمكة، ومن ثم ثنى بالرواية عن مالك لأنه شيخ أهل المدينة وهى تالية لمكة في نزول الوحي وفي جميع الفضل.

وقد اعترض على المصنف في إدخاله حديث الأعمال هذا في ترجمة بدء الوحي وأنه لا تعلق له به أصلا، قال ابن رشيد: لم يقصد البخاري بايراده سوى بيان حسن نيته فيه في هذا التأليف، وقد قيل: إنه أراد أن يقيمه مقام الخطبة للكتاب، لأن في سياقه أن عمر قاله على المنبر، بمحضر الصحابة، فاذا صلح أن يكون فى خطبة المنبر صلح أن يكون في خطبة الكتاب. وحكى المهلب أن النبي ﷺ خطب به حين قدم المدينة مهاجرا، فناسب ايراده في بدء الوحي، لأن الأحوال التي كانت قبل الهجرة كانت كالمقدمة لها لأن بالهجرة افتتح الإذن في قتال المشركين، ويعقبه النصر والظفر والفتح انتهى. وهذا وجه حسن.

وقال ابن المنير: فى أول التراجم: كان مقدمة النبوة في حق النبي ﷺ الهجرة الى الله تعالى بالخلوة في غار حراء فناسب الافتتاح بحديث الهجرة، ومن المناسبات البديعة الوجيزة ما تقدمت الإشارة اليه أن الكتاب لما كان موضوعا لجمع وحي السنة صدره ببدء الوحي، ولما كان الوحي لبيان الأعمال الشرعية صدره بحديث الأعمال، ومع هذه المناسبات لايليق الجزم بأنه لا تعلق له بالترجمة أصلا، والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم. وقد تواتر النقل عن الأئمة في تعظيم قدر هذا الحديث: قال أبو عبد الله ليس في أخبار النبي ﷺ شيء أجمع وأغنى وأكثر فائدة من هذا الحديث. واتفق عبد الرحمن بن مهدي والشافعي فيما نقله البويطي عنه وأحمد بن حنبل وعلي بن المديني وأبو داود والترمذي والدارقطني وحمزة الكناني على أنه ثلث الإسلام. ومنهم من قال ربعه، وقال ابن مهدي أيضا: يدخل في ثلاثين بابا من العلم، وقال الشافعي: يدخل في سبعين بابا، ويحتمل أن يريد بهذا العدد المبالغة. وقال عبد الرحمن بن مهدي أيضا: ينبغي أن يجعل هذا الحديث رأس كل باب.ووجه البيهقي كونه ثلث العلم بأن كسب العبد يقع بقلبه ولسانه وجوارحه، فالنية أحد أقسامها الثلاثة وأرجحها، لأنها قد تكون عبادة مستقلة وغيرها يحتاج إليها، ومن ثم ورد: نية المؤمن خير من عمله، فاذا نظرت اليها كانت خير الأمرين. وكلام الإمام أحمد يدل على أنه أراد بكونه ثلث العلم أنه أحد القواعد الثلاث التي ترد اليها جميع الأحكام عنده، وهي هذا و«من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد» و «الحلال بيّن والحرام بيّن» الحديث.

قوله (على المِنبر) أي منبر المسجد النبوي،

قوله (إنما الأعمال بالنيات) وقال الخويي[1] : كأنه أشار بذلك الى أن النية تتنوع كما تتنوع الأعمال، كمن قصد بعمله وجه الله أو تحصيل موعوده، أو الاتقاء لوعيده.

(تكميل) :الأعمال تقتضي عاملين. والتقدير: الأعمال الصادرة من المكلفين، وعلى هذا هل تخرج أعمال الكفار؟ الظاهر الإخراج، لأن المراد بالأعمال أعمال العبادة وهي لاتصح من الكافر وإن كان مخاطبا بها معاقبا على تركها.

قال النووي: النية القصد، وهي عزيمة القلب. وتعقبه الكرماني بأن عزيمة القلب قدر زائد على أصل القصد. واختلف الفقهاء هل هي ركن أو شرط؟ والمرجح أن إيجادها ذكرا في أول العمل ركن، واستصحابها حكما بمعنى أن لايأتي بمناف شرعا شرط. ولابدَّ من محذوف يتعلق به الجار والمجرور، فقيل تعتبر وقيل تكمل وقيل تصح وقيل تحصل وقيل تستقر.

قال الطيبي: كلام الشارع محمول على بيان الشرع، لأن المخاطبين بذلك هم أهل اللسان، فكأنهم خوطبوا بما ليس لهم به علم إلا من قبل الشارع، فيتعين الحمل على ما يفيد الحكم الشرعي. وقال البيضاوي: النية عبارة عن انبعاث القلب نحو ما يراه موافقا لغرض من جلب

---

(١) لعله: الحربي

نفع أو دفع ضر حالا أو مآلا، والشرع خصصه الإرادة المتوجهة نحو الفعل لابتغاء رضاء الله وامتثال حكمه. والنية في الحديث محمولة على المعنى اللغوي ليحسن تطبيقه على ما بعده وتقسيمه أحوال المهاجر، فانه تفصيل لما أجمل، والحديث متروك الظاهر لأن الذوات غير منتفية، إذ التقدير: لا عمل إلا بالنية، فليس المراد نفي ذات العمل لانه قد يوجد بغير نية، بل المراد نفي أحكامها كالصحة والكمال، لكن الحمل على نفي الصحة أولى لأنه أشبه بنفي الشيء نفسه.

قال ابن دقيق العيد: وأخرج بعضهم الأقوال وهو بعيد، ولا تردد عندي في أن الحديث يتناولها. وقال: الذين اشترطوا النية قدروا صحة الأعمال، والذين لم يشترطوها قدروا كمال الأعمال، ورجح الأول بأن الصحة أكثر لزوما للحقيقة من الكمال فالحمل عليها أولى.

قوله (هجرته) الهجرة الترك، والهجرة الى الشيء الانتقال إليه عن غيره. وفي الشرع: ترك ما نهى الله عنه. وقد وقعت في الإسلام على وجهين: الأول الانتقال من دار الخوف الى دار الأمن كما في هجرتي الحبشة وابتداء الهجرة من مكة الى المدينة، الثاني الهجرة من دار الكفر الى دار الإيمان، وذلك بعد أن استقر النبي ﷺ بالمدينة، وهاجر اليه من أمكنه ذلك من المسلمين. وكانت الهجرة اذ ذاك تختص بالانتقال الى المدينة، الى أن فتحت مكة فانقطع الاختصاص، وبقي عموم الانتقال من دار الكفر لمن قدر عليه باقيا.

قوله(يصيبها) أي يحصلها، لأن تحصيلها كإصابة الغرض بالسهم بجامع حصول المقصود.

قوله (فهجرته إلى ما هاجر إليه) قال الكرماني: يحتمل أن يكون قوله «الى ما هاجر إليه» متعلقا بالهجرة، فيكون الخبر محذوفا والتقدير قبيحة أو غير صحيحة مثلا، ويحتمل أن يكون خبر فهجرته والجملة خبر المبتدأ الذي هو من كانت انتهي. وهذا الثاني هو الراجح لأن الأول يقتضي أن تلك الهجرة مذمومة مطلقاً، وليس كذلك، إلا إن حمل على تقدير شيء يقتضي التردد أو القصور عن الهجرة الخالصة، كمن نوى بهجرته مفارقة دار الكفر وتزوج المرأة معا فلا تكون قبيحة ولا غير صحيحة، بل هي ناقصة بالنسبة إلى من كانت هجرته خالصة، وانما أشعر السياق بذم من فعل ذلك بالنسبة إلى من طلب المرأة بصورة الهجرة الخالصة، فأما من طلبها مضمومة إلى الهجرة فإنه يثاب على قصد الهجرة لكن دون ثواب من أخلص، وكذا من طلب التزويج فقط لا على صورة الهجرة إلى الله لأنه من الأمر المباح الذي قد يثاب فاعله إذا قصد به القربة كالإعفاف. واستدل بهذا الحديث على أنه لايجوز الإقدام على العمل قبل معرفة الحكم، لأن فيه أن العمل يكون منتفيا إذا خلا عن النية، ولا يصح نية فعل الشيء إلا بعد معرفة حكمه، وعلى أن الغافل لا تكليف عليه، لأن القصد يستلزم العلم بالمقصود والغافل غير قاصد.

٢-باب* ٢-عَنْ عائِشَةَ أمِّ المُؤْمِنِينَ رضيَ اللهُ عَنْهَا أنَّ الحَارِثَ بنَ هشامٍ رضيَ

اللَّهُ عَنْهُ سأَلَ رسولَ اللَّه ﷺ فَقَالَ: يا رَسولَ اللَّه كَيْفَ يَأْتِيكَ الْوَحْيُ؟ فَقَالَ رسولُ اللَّه ﷺ «أَحْيَاناً يَأْتِينِي مِثْلَ صَلْصَلَةِ الجَرَسِ وَهُوَ أَشَدُّهُ عليَّ فَيَفْصِمُ عَنِّي وقَدْ وَعَيْتُ عَنْهُ ما قالَ، وأَحْيَانًا يَتَمَثَّلُ لي المَلَكُ رجُلاً فَيُكَلِّمُنِي فأَعِي ما يَقُولُ». قالَتْ عَائِشَةُ رضيَ اللَّهُ عَنْهَا: ولَقَدْ رَأَيْتُهُ يَنْزِلُ عليه الوَحْيُ فِي اليَوْمِ الشَّدِيدِ البَرْدِ فَيَفْصِمُ عَنْهُ وإِنَّ جَبِينَهُ لَيَتَفَصَّدُ عَرَقًا.

[الحديث٢-طرفه في:٣٢١٥]

قوله (أم المؤمنين) هو مأخوذ من قوله تعالى (وأزواجه أمهاتهم) أي في الاحترام وتحريم نكاحهن لا في غير ذلك مما اختلف فيه على الراجح، وإنما قيل للواحدة منهم أم المؤمنين للتغليب، وإلا فلا مانع من أن يقال لها أم المؤمنات على الراجح،

قوله(أحياناً) وأُورِد على ما اقتضاه الحديث-وهو أن الوحي منحصر في الحالتين-حالات أخرى: إما من صفة الوحي كمجيئه كدوي النحل، والنفْث في الروع، والالهام، والرؤيا الصالحة، والتكليم ليلة الأسراء بلا واسطة. و إما من صفة حامل الوحي كمجيئه في صورته التي خلق عليها له ستمائة جناح، ورؤيته على كرسي بين السماء والأرض وقد سد الأفق. والجواب منع الحصر في الحالتين المقدم ذكرهما وحملهما على الغالب، أو حمل ما يغايرهما على أنه وقع بعد السؤال، أو لم يتعرض لصفتي الملك المذكورتين لندورهما، فقد ثبت عن عائشة أنه لم يره كذلك إلا مرتين، أو لم يأته في تلك الحالة بوحي، أو أتاه به فكان على مثل صلصلة الجرس، فإنه بيَّن بها صفة الوحي لا صفة حامله.

قوله (وهو أشده علي) يفهم منه أن الوحي كله شديد، ولكن هذه الصفة أشدها، وهو واضح.

قوله (فيفصم) أي يقلع ويتجلى ما يغشاني.

قوله (يتمثل لي الملك رجلا) التمثل مشتق من المثل، أي يتصور. واللام في الملك للعهد وهو جبريل، قال شيخنا شيخ الإسلام(١) : وهذا على سبيل التقريب، والحق أن تمثيل الملك رجلا ليس معناه أن ذاته انقلبت رجلا، بل معناه أنه ظهر بتلك الصورة تأنيسا لمن يخاطبه.

قوله (ليتفصد) مأخوذ من الفصد وهو قطع العرق لإسالة الدم، شبه جبينه بالعرق المفصود مبالغة في كثرة العرق. وفي قولها «في اليوم الشد البرد» دلالة على كثرة معاناة التعب والكرب عند نزول الوحي، لما فيه من مخالفة العادة، وهو كثرة العرق في شدة البرد، فإنه يشعر بوجود أمر طاريء زائد على الطباع البشرية، وفي حديث الباب من الفوائد-غير ماتقدم-أن السؤال عن الكيفية لطلب الطمأنينة لايقدح في اليقين، وجواز السؤال عن أحوال الأنبياء من الوحي وغيره، وأن المسئول عنه إذا كان ذا أقسام يذكر

(١) الشيخ سراج الدين البلقيني

المجيب في أول جوابه ما يقتضي التفصيل. والله أعلم.

٣-باب* ٣-عن عَائشَة أمّ المُؤْمنينَ أنَّهَا قَالَتْ: أوَّلُ ما بُدِيءَ به رسول الله ﷺ منَ الوَحْي الرُّؤْيَا الصَّالحَةُ في النَّوْمِ، فكَانَ لايَرَى رُؤْيَا إلاّ جاءَتْ مثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ. ثُمَّ حُبِّبَ إليه الخَلاءُ، وكانَ يَخْلُو بغارِ حراءِ فَيَتَزَوَّدُ لمثلهَا، حَتَّى جَاءَهُ الحَقُّ وهُوَ في غارِ حراءِ، فَجَاءَهُ المَلَكُ فَقَالَ: اقْرأ.قالَ: مَا أنَا بِقَارِيءٍ. قال: فَأخَذَني فَغَطَّني حتَّى بَلَغَ منّي الجَهْدَ، ثُمَّ أرْسَلَني فَقَالَ: اقْرأ.فَقُلْت: ما أنَا بقارِيءٍ. فأخَذَني فَغَطَّني الثَّانيَةَ حَتَّى بَلَغَ منِّي الجَهْدَ، ثُمَّ أرْسَلَني فقالَ: اقْرأ.فَقُلْت: مَا أنَا بقاريءٍ. فأخَذَني فَغَطَّني الثَّالثة، ثُمَّ أرْسَلَني فقالَ: (اقْرأْ باسم ربِّك الَّذي خَلَقَ، خَلَقَ الإنْسانَ منْ عَلَق. اقْرأْ وَرَبُّكَ الأكْرَمُ) فرجَعَ بِهَا رسولُ الله ﷺ يَرْجُفُ فُؤَادُهُ، فَدَخَلَ عَلَى خديجَةَ بنتِ خُوَيْلدٍ رضيَ اللهُ عَنْهَا فَقَالَ: زمِّلوني زمِّلوني. فَزَمَّلوهُ حتَّى ذهَبَ عنهُ الرَّوْعُ، فقالَ لخديجةَ وأخْبَرَهَا الخَبَرَ: لَقَدْ خَشيْتُ على نَفْسِي. فقالَتْ خُديجَةُ كَلاَّ والله مَا يُخْزِيكَ اللهُ أبَداً، إنَّكَ لَتَصلُ الرَّحِمَ، وتَحْملُ الكَلَّ ، وتَكْسِبُ المَعْدومَ، وتَقْرِي الضَّيْفَ، وتُعينُ على نَوائبِ الحَقِّ. فانْطلَقَتْ به خديجَةُ حَتَّى أتَتْ به وَرَقَةَ بنَ نَوْفَلِ بنِ أسَدِ بنِ عبد العُزَّى-ابنَ عَمِّ خديجَة- وكانَ امْرَءاً تَنَصَّرَ في الجَاهليَّة، وكانَ يَكْتُبُ الكتَابَ العِبْرَانيَّ، فَيَكْتُبُ منَ الإنْجيلِ بالعبْرَانيَّة مَا شَاءَ اللهُ أنْ يَكْتُبَ، وكانَ شَيْخًا كبيراً قَدْ عَميَ، فَقَالَتْ لَهُ خديجةُ: يا ابن عَمِّ، اسْمَعْ من ابن أخيكَ. فَقَالَ لَهُ ورقَةُ:يَا ابن أخي مَاذَا تَرَى؟ فأخْبَرَهُ رسولُ الله ﷺ خَبَرَ مَا رَأى. فَقَالَ لَهُ وَرَقَةُ: هذا النَّامُوسُ الَّذي نَزَّلَ اللهُ عَلَى مُوسى، ياليْتَني فيهَا جَذَعًا، لَيْتَني أكونُ حَيًّا إذْ يُخرجُك قَوْمُكَ. فَقَالَ رسولُ الله ﷺ : أوَ مُخْرجِيَّ هُمْ؟ قالَ نَعَم، لمْ يَأتِ رجُلٌ قَطُّ بمثْلِ مَا جئْتَ به إلاّ عُودي، وإنْ يُدْرِكْني يَوْمُكَ أنْصرْكَ نَصْراً مُؤَزَّراً. ثُمَّ لم يَنْشَبْ وَرَقَةُ أنْ تُوُفّيَ، وَفَتَرَ الوَحْيُ.

[الحديث ٣-أطرافه في:٣٣٩٢ ، ٤٩٥٣ ، ٤٩٥٥ ، ٤٩٥٦ ، ٤٩٥٧ ، ٦٩٨٢]

قوله (حبب) لم يسم فاعله لعدم تحقق الباعث على ذلك وان كان كل من عند الله، أو لينبه على أنه لم يكن من باعث البشر، أو يكون ذلك من وحي الإلهام، والخلاء بالمد الخلوة، والسر فيه أن الخلوة فراغ القلب لما يتوجه له. وحراء هو جبل معروف بمكة. والغار نقب في الجبل.

قوله (فيتحنث) هي بمعنى يتحنف، أي يتبع الحنيفية وهي دين إبراهيم.

قوله (مثلها) أي الليالي. والتزود استصحاب الزاد.

قوله (حتى جاءه الحق) أي الأمر الحق.

قوله (ما أنا بقاريء) أي ما أحسن القراءة. فلما قال ذلك ثلاثاً قيل له: { اقرأ باسم ربك} أي لا تقرؤه بقوتك ولا بمعرفتك، لكن بحول ربك وإعانته، فهو يعلمك، كما خلقك

وكما نزع عنك علق الدم وغمز الشيطان في الصغر، وعلم أمتك حتى صارت تكتب بالقلم بعد أن كانت أمية، ذكره السهيلي.

قوله (فغطني) والغط حبس النفس، ومنه غطه في الماء، أو أراد غمني ومنه الخنق. ولأبي داود الطيالسي في مسنده بسند حسن: فأخذ بحلقي.

قوله (حتى بلغ مني الجهد) أي بلغ الغط مني غايةَ وُسْعي، أي بلغ مني الجهد مبلغه. وقوله «أرسلني» أي أطلقني».

قوله (فرجع بها) أي بالآيات أو بالقصة.

قوله (فزملوه) أي لَفُّوه. والروع بالفتح الفزع.

قوله (لقد خشيت على نفسي) دل هذا مع قوله « يرجف فؤاده» على انفعال حصل له من مجيء الملك، ومن ثم قال «زملوني»، والخشية المذكورة اختلف العلماء في المراد بها على اثني عشر قولا: أولها الجنون وأن يكون ما رآه من جنس الكهانة، جاء مصرحا به في عدة طرق، وأبطله أبو بكر بن العربي وحق له أن يُبْطَل، لكن حمله الاسماعيلي على أن ذلك حصل له قبل حصول العلم الضروري له أن الذي جاءه ملك، وأنه من عند الله تعالى. ثانيها الهاجس، وهو باطل أيضا لأنه لايستقر وهذا استقر وحصلت بينهما المراجعة. ثالثها الموت من شدة الرعب. رابعها المرض، وقد جزم به ابن أبي جمرة. خامسها دوام المرض. سادسها العجز عن حمل أعباء النبوة. سابعها العجز عن النظر إلى الملك من الرعب. ثامنها عدم الصبر على أذى قومه. تاسعها أن يقتلوه. عاشرها مفارقة الوطن. حادى عشرها تكذيبهم إياه. ثاني عشرها تعييرهم إياه. وأولى هذه الأقوال بالصواب وأسلمها من الارتياب الثالث واللذان بعده، وما عداها فهو معترض. والله الموفق.

قوله (فقالت خديجة: كلا) معناها النفي والإبعاد، ثم استدلت على ما أقسمت عليه من نفي ذلك أبداً بأمر استقرائي وصفته بأصول مكارم الأخلاق، لأن الإحسان إما إلى الأقارب أو إلى الأجانب، وإما بالبدن أو بالمال، وإما على من يستقل بأمره أو من لايستقل، وذلك كله مجموع فيما وصفته به. والكَلُّ هو من لا يستقل بأمره كما قال الله تعالى { وهو كَلٌّ على مولاه}.

وفي هذه القصة من الفوائد استحباب تأنيس من نزل به أمر بذكر تيسيره عليه وتهوينه لديه، وأن من نزل به أمر استحب له أن يطلع عليه من يثق بنصيحته وصحة رأيه.

قوله (فانطلقَتْ به) أي مضت معه.

قوله (تنصر) أي صار نصرانيا، وكان قد خرج هو وزيد بن عمرو بن نفيل لما كرها عبادة الأوثان إلى الشام وغيرها يسألون عن الدين، فأما ورقة فأعجبه دين النصرانية فتنصر، وكان لقي من بقي من الرهبان على دين عيسى ولم يبدل، ولهذا أخبر بشأن النبي ﷺ

والبشارة به، إلى غير ذلك مما أفسده أهل التبديل. وأما زيد بن عمرو فسيأتي خبره في المناقب[١] إن شاء الله تعالى.

وفيه إرشاد إلى أن صاحب الحاجة يقدم بين يديه من يعرّف بقدره ممن يكون أقرب منه إلى المسئول، وذلك مستفاد من قول خديجة لورقة «اسمع من ابن أخيك» أرادت بذلك أن يتأهب لسماع كلام النبي ﷺ وذلك أبلغ في التعليم.

قوله (هذا الناموس الذي نزل الله على موسى) . والناموس صاحب السر كما جزم به المؤلف في أحاديث الأنبياء. وزعم ابن ظفر أن الناموس صاحب سر الخير، والجاسوس صاحب سر الشر. والأول الصحيح الذي عليه الجمهور. والمراد بالناموس هنا جبريل عليه السلام. وقوله «على موسى» ولم يقل على عيسى مع كونه نصرانيا لأن كتاب موسى عليه السلام مشتمل على أكثر الأحكام، بخلاف عيسى. وكذلك النبي ﷺ.

قوله (يا ليتني فيها جذعٌ[٢]) والجذع هو الصغير من البهائم، كأنه تمنى أن يكون عند ظهور الدعاء إلى الإسلام شابا ليكون أمكن لنصره، وبهذا يتبين سر وصفه بكونه كان كبيرا أعمى.

قوله (أو مخرجي هم) واستبعد النبي ﷺ أن يخرجوه، لأنه لم يكن فيه سبب يقتضي الإخراج، لما اشتمل عليه من مكارم الاخلاق التي تقدم من خديجة وصفها.

قوله (إلا عودي) فذكر ورقة أن العلة في ذلك مجيئه لهم بالانتقال عن مألوفهم، ولأنه علم من الكتب أنه لا يجيبونه إلى ذلك، وأنه يلزمه لذلك منابذتهم ومعاندتهم فتنشأ العداوة من ثم، وفيه دليل على أن المجيب يقيم الدليل على ما يجيب به إذا اقتضاه المقام.

قوله (إن يدركني يومك) يعني يوم الإخراج.

قوله (مؤزّرا) أي قويا.

قوله (ثم لم ينشب) أي لم يلبث.

٤- عن جابرِ بنِ عبدِ اللّهِ الأنصاريِّ قال- وهُوَ يحدِّثُ عن فَتْرَةِ الوَحْيِ- فَقالَ في حديثه «بَيْنَا أنَا أمْشِي، إذْ سمعتُ صَوْتاً منَ السَّماءِ، فَرَفَعْتُ بَصَري فإذَا المَلَكُ الّذي جَاءَني بحِراءٍ جَالسٌ عَلَى كُرْسيٍّ بيْنَ السَّماءِ والأرْض، فرُعِبْتُ منْهُ، فَرَجَعْتُ فَقُلْتُ: زَمِّلوني. فأنزلَ اللّهُ تعالى {يَا أيُّهَا المُدَّثِّرُ، قُمْ فَأنْذِرْ- إلى قوله - والرُّجْزَ فاهْجُرْ} فَحَمِيَ الوَحْيُ وتَتَابَعَ».

[الحديث ٤-أطرافه في: ٣٢٣٨ ، ٤٩٢٢ ، ٤٩٢٣ ، ٤٩٢٤ ، ٤٩٢٥ ، ٤٩٢٦ ، ٤٩٥٤ ، ٦٢١٤]

---

(١) كتاب مناقب الأنصار باب / ٢٤ ح ٣٨٢٧ - ٣ / ١٩٩.

(٢)رواية الباب واليونينية "ياليتني فيها جذعا".

قوله (فقلت زملوني زملوني[١]) وفي رواية يونس في التفسير فقلت دثروني فنزلت {يا أيها المدثر قم فانذر} أي حذر من العذاب من لم يؤمن بك {وربك فكبر} أي عظم {وثيابك فطهر} أي من النجاسة، وقيل الثياب النفس، وتطهيرها اجتناب النقائص، والرجز هنا الأوثان، كما سيأتي من تفسير الراوي عند المؤلف في التفسير، والرجز في اللغة العذاب، وسمي الأوثان هنا رجزا لأنها سببه.

قوله (فحمي الوحي) أي جاء كثيرا.

قوله (وتتابع) تأكيد معنوي، ويحتمل أن يراد بحَمي قويَ، وتتابع تكاثر.

٤-باب* ٥- عن سعيد بن جبير عنِ ابن عبَّاسٍ في قَوله تعالى {لاتُحَرِّكْ به لسانَكَ لتَعْجَلَ به} قال: كانَ رسولُ اللهِ ﷺ يُعَالجُ منَ التَّنْزيلِ شدَّةً، وكانَ ممَّا يُحَرِّكُ شَفَتَيْه، فقالَ ابنُ عَبَّاسٍ فأنَا أُحَرِّكُهُمَا لكُمْ كما كانَ رسولُ اللهِ ﷺ يُحرِّكُهُمَا. وقال سعيدٌ أنَا أُحَرِّكُهُمَا كمَا رأَيْتُ ابنَ عَبَّاسٍ يحرِّكُهُمَا- فَحَرَّكَ شَفَتَيْه- فأنْزَلَ اللهُ تَعَالَى { لاتُحَرِّكْ به لِسَانَكَ لتَعْجَلَ به إنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرآنَهُ) قالَ جَمْعَهُ لكَ فى صدْرِكَ وتَقْرَأهُ { فإذَا قَرأناهُ فاتَّبعْ قُرَآنَه} قالَ فاسْتَمعْ لهُ وأَنْصتْ {ثُمَّ إنَّ علينَا بيانه} ثُمَّ إنَّ عَلَيْنَا أن تَقْرَأهُ. فكان رَسولُ اللهِ ﷺ بَعْدَ ذلكَ إذَا أتَاهُ جبريلُ استَمَعَ ، فَإذَا انْطَلَقَ جبريلُ قَرَأهُ النبيُّ ﷺ كما قَرَأهُ.

[الحديث ٥-أطرافه في:٤٩٢٧ ، ٤٩٢٨ ، ٤٩٢٩ ، ٥٠٤٤ ، ٧٥٢٤]

قوله (كان ما يعالج[٢]) المعالجة محاولة الشيء بمشقة، أي كان العلاج ناشئا من تحريك الشفتين، أي مبدأ العلاج منه،

٥-باب* ٦- عن ابن عباسٍ قال: كان رسولُ اللهِ ﷺ أجودَ النَّاسِ، وكانَ أجْوَدُ ما يكونُ فى رَمَضَانَ حينَ يَلْقَاهُ جبريلُ، وكانَ يلقاهُ كل ليلة منْ رَمَضَانَ فَيُدَارِسُه القُرآنَ، فَلَرسوُلُ اللهِ ﷺ أجْوَدُ بالخَيْرِ منَ الرِّيحِ المُرْسَلَة.

[الحديث ٦- أطرافه في: ١٩٠٢ ، ٣٢٢٠ ، ٣٥٥٤ ، ٤٩٩٧]

قوله (أجود الناس) ومعنى أجود الناس: أكثر الناس جودا، والجود من الصفات المحمودة.

قوله (فيدارسه القرآن) قيل الحكمة فيه أن مدارسة القرآن تجدد له العهد بمزيد غنى النفس، والغنى سبب الجود. والجود في الشرع إعطاء ما ينبغي لمن ينبغي، وهو أعم من الصدقة، وأيضا فرمضان موسم الخيرات، لأن نعم الله على عباده فيه زائدة على غيره، فكان النبي ﷺ يؤثر متابعة سنة الله في عباده. فبمجموع ما ذكر من الوقت والمنزول به والنازل والمذاكرة حصل المزيد في الجود. والعلم عند الله تعالى.

---

(١) رواية الباب واليونينية «زملوني» مرة واحدة.
(٢) رواية الباب واليونينية «كان رسول الله صلى يعالج».

قوله (فلرسول الله ﷺ) الفاء للسببية، واللام للابتداء. والمرسلة أي المطلقة يعني أنه في الإسراع بالجود أسرع من الريح، وعبر بالمرسلة إشارة إلى دوام هبوبها بالرحمة. وإلى عموم النفع بجوده كما تعم الريح المرسلة جميع ما تهب عليه، وقال النووي: في الحديث فوائد: منها الحث على الجود في كل وقت، ومنها الزيادة في رمضان وعند الاجتماع بأهل الصلاح، وفيه زيارة الصلحاء وأهل الخير، وتكرار ذلك إذا كان المزور لا يكره، واستحباب الإكثار من القراءة في رمضان وكونها أفضل من سائر الأذكار، إذ لو كان الذكر أفضل أو مساويا لفعلاه. فإن قيل: المقصود تجويد الحفظ، قلنا الحفظ كان حاصلا، والزيادة فيه تحصل ببعض المجالس، وأنه يجوز أن يقال رمضان من غير إضافة وغير ذلك مما يظهر بالتأمل.
قلت: وفيه إشارة إلى أن ابتداء نزول القرآن كان في شهر رمضان، لأن نزوله إلى السماء الدنيا جملة واحدة كان في رمضان كما ثبت من حديث ابن عباس، فكان جبريل يتعاهده في كل سنة فيعارضه بما نزل عليه من رمضان إلى رمضان، فلما كان العام الذي توفي فيه عارضه به مرتين كما ثبت في الصحيح عن فاطمة رضي الله عنها. وبهذا يجاب من سأل عن مناسبة إيراد هذا الحديث في هذا الباب. والله أعلم بالصواب.

٦-عن عبدِ اللهِ بن عبَّاسٍ أنَّ أبَا سُفْيَانَ بن حَرْب أخْبَرَه أنَّ هِرَقْل أرسَلَ إليه في رَكْبٍ مِنْ قُرَيش، وكانوا تُجاراً بالشَّام في المُدَّة التي كان رسولُ اللهِ ﷺ مَادَّ فيهَا أبَا سُفْيَانَ وكُفَّارَ قُرَيْشٍ، فأتَوهُ وَهُمْ بإيْلياءَ، فَدَعَاهُمْ فِى مَجْلسِهِ وحَوْلَهُ عُظَمَاءُ الرُّومِ، ثُمَّ دَعَاهُمْ ودَعَا بِتَرْجُمَانه فقالَ: أيُكُمْ أقْرَبُ نَسبًا بهذا الرَّجُلِ الَّذى يزعُمُ أنَّهُ نَبِيٌّ؟ فقالَ أبوسُفْيَانَ: فقلتْ أنَا أقْرَبُهُمْ نَسباً. فَقَالَ: أدْنُوهُ مِنِّي، وقَرِّبوا أصحابَهُ فاجْعلُوهُم عندَ ظَهْرِهِ. ثُمَّ قالَ لتَرْجُمَانه: قُلْ لَهُمْ إنِّي سائلٌ هذا الرَّجُلَ، فإنْ كَذَبَنِي فكذِّبوه. فَو اللهِ لوْلا الحَيَاءُ مِنْ أن يَأْثِرُوا عَلَيَّ كَذِبًا لكَذَبْتُ عَنْهُ. ثمَّ كان أوَّلَ ما سَألَنِى عنهُ أن قالَ: كيفَ نسبُهُ فيكمْ؟ قلتُ: هوَ فينَا ذُو نَسَب. قال: فهلْ قالَ هذا القَوْلَ منكم أحَدٌ قَطُّ قَبْلَه؟ قلتُ: لا. قال: فَهَلْ كان مِنْ آبائِهِ مِن مَلِك؟ قلت: لا. قال: فأشرافُ النَّاسِ يَتَّبِعونَهُ أمْ ضُعَفَاؤُهُمْ ؟قلتُ: بَلْ ضُعَفَاؤُهُمْ. قالَ: أيَزِيدونَ أمْ يَنْقُصُون؟ قلتْ: بَلْ يزيدونَ.قالَ: فَهَلْ يرتَدُّ أحَدٌ منهمْ سخْطَةً لدينِهِ بَعْدَ أنْ يَدْخُلَ فيه؟ قلتْ: لا قال: فهل كنتم تَتَّهِمُونَهُ بالكذبِ قَبْلَ أنْ يقولَ ما قال؟ قلتْ: لا. قال: فهل يَغْدِرُ؟ قلتْ:لا، ونحنُ منهُ فى مُدَّةٍ لانَدْرِى ما هُوَ فاعِلٌ فيهَا. قالَ ولَمْ تُمْكنِّي كلمَةٌ أدْخِلُ فيهَا شيئًا غَيْرُ هذه الكلمة. قال: فهل قاتَلْتُمُوهُ؟ قلتُ: نعم. قال: فكيفَ كان قتالُكُمْ إيَّاهُ؟ قلتْ: الحربُ بَيْنَنَا وبَيْنَهُ سِجَالٌ، يَنَالُ مِنَّا ونَنَالُ منْهُ. قَالَ: مَاذَا يَأمُرُكُمْ؟ قلتُ يقولُ اعبُدوا اللهَ وحْدَهُ ولاَ تُشرِكُوا بهِ شيْئًا، واتْرُكُوا مَا يقولُ آباؤُكُمْ . ويَأمُرُنَا بالصَّلاة والصِّدْقِ والعَفَافِ والصِّلَة. فقال للتَرْجُمانِ: قُلْ له سَألْتُكَ عن نَسَبِهِ فَذكرتَ أنه فيكُمْ ذُو نسب، فكذلكَ

الرُّسُل تُبْعَثُ في نَسَبِ قَوْمِها. وَسَأَلْتُكَ هَلْ قالَ أحدٌ مِنكُمْ هذا القَوْلَ؟ فذكرتَ أن لا، فقلتُ لو كانَ أحَدٌ قال هذا القولَ قَبْلَهُ لقُلْتُ رَجُلٌ يَأْتَسِي بقولٍ قيلَ قبلَه. وسألتُكَ هَلْ كان من آبائه من مَلِكٍ ؟ فذكرت أن لا، قلتُ فلو كان مِنْ آبائِه ملك قلتُ رجلٌ يَطلُبُ ملكَ أبيه. وسألتُكَ هل كنتم تتَّهِمونَهُ بالكَذِبِ قَبْلَ أن يقولَ مَا قالَ؟ فَذكرتَ أنْ لا، فَقَدْ أعرِفُ أنَّهُ لم يكن لِيَذرَ الكذبَ على النَّاسِ ويكذبَ على اللهِ. وسَأَلْتُكَ أشْرافُ النَّاسِ اتَّبعُوهُ أمْ ضُعَفَاؤهُمْ؟ فذكرتَ أنَّ ضُعَفَاءهُمْ اتَّبعُوه، وهم أتْبَاعُ الرُّسُلِ. وسألتُكَ أيَزيدونَ أم يَنقُصُون؟ فذكرتَ أنَّهُمْ يَزيدونَ، وكَذَلِكَ الإيمانُ حَتَّى يَتمَّ. وَسَأَلْتُكَ أيرتَدُّ أحَدٌ سَخْطَةً لدينه بَعْدَ أنْ يَدخُلَ فيه، فذكرتَ أنْ لا، وكذلك الإيمانُ حِينَ تُخَالِطُ بَشَاشَتُهُ القُلُوبَ. وسأَلْتُكَ هَلْ يَغْدِرُ؟ فذكرت أن لا، وكذلك الرُّسُل لاتغدرُ. وسألتُكَ بما يَأمُرُكمْ؟ فذكرتَ أنَّهُ يَأمُرُكم أن تَعبُدوا اللهَ ولاتُشرِكوا بِهِ شَيْئًا وَيَنهَاكُمْ عَنْ عِبادةِ الأوْثَانِ ويَأمُرُكمْ بالصلاةِ والصِّدْقِ والعفاف، فإن كانَ ما تقولُ حَقًّا فسَيَمْلِكُ موضعَ قدميَّ هَاتَيْنِ. وقد كنتُ أعلمُ أنه خارجٌ لم أكُنْ أظُنُّ أنَّهُ منكم ، فلو أنِّي أعلَمُ أنِّي أخلُصُ إليه لَتجَشَّمْتُ لقَاءَه، ولوكنتُ عِنْدَهُ لغَسلْتُ عن قَدَمِه.

ثُمَّ دعَا بكتابِ رسولِ اللهِ ﷺ الَّذي بَعَثَ بِهِ دِحْيَةُ إلى عظيم بُصْرَى ، فَدَفَعَهُ إلى هِرَقْلَ، فَقَرَأَهُ، فإذَا فِيْهِ :

بسم الله الرَّحمن الرَّحيم

مِنْ مُحَمَّدٍ بن عبدِ اللهِ وَرَسُولِهِ إلى هِرقل عَظِيمِ الرُّومِ. سَلامٌ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الهُدَى. أمَّا بَعْدُ فإنِّى أدعُوكَ بدعايةِ الإسْلامِ ، أسْلِمْ تَسْلَمْ يؤتِكَ اللهُ أجرَكَ مَرَّتَيْنِ. فإنْ تَوَلَّيْتَ فإنَّ عليكَ إثمَ الأريسيِّين { وَيَاأهْلَ الكِتَابِ تَعَالَوْا إلى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنا وَبَيْنَكُمْ أنْ لاتَعْبُدَ إلاَّ اللهَ ولاتُشْرِكَ به شَيْئًا ولايَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ ، فإنْ تَوَلَّوْا فقولوا اشْهَدُوا بأنَّا مُسْلِمون}.

قالَ أبو سفيان: فلما قالَ مَا قالَ، وَفَرَغَ من قراءةِ الكِتَابِ، كَثُرَ عِنْدَهُ الصَّخَبُ، وارتَفَعَتِ الأصْواتُ وأُخْرِجْنا. فقُلْتُ لأصْحابي حينَ أُخْرِجْنَا: لقدْ أمِرَ أمْرُ ابن أبي كَبْشَةَ، إنَّهُ يخَافه مَلِكُ بني الأصْفَرِ. فما زلتُ مُوقِنًا أنَّهُ سيظهرُ حتى أدْخَلَ اللهُ عليَّ الإسْلام، وكانَ ابنُ الناطُورِ-صاحبُ إيلياءَ وهِرَقْلَ- سُقُفًّا على نصارى الشام يُحَدِّثُ أن هرقل حين قدم إيلياءَ أصبح يوماً خَبِيثَ النَّفْسِ، فقال بعضُ بطارقَته: قد استنكرْنا هيئَتكَ. قال: ابنُ الناطُور: وكان هِرَقْلُ حزَّاءً يَنْظُرُ في النُّجومِ، فَقَالَ لَهُمْ حينَ سَألوه: إنِّى رأيتُ اللَّيلَةَ حينَ نَظَرْتُ فِي النُّجومِ مَلِكَ الخِتَانِ قد ظَهَرَ، فَمَنْ يختَتِنُ من هذه الأمَّةِ؟ فقالوا: ليسَ يختَتِنُ إلاَّ اليهودُ، فلا يُهِمَّنَّكَ شأنُهُمْ، واكتُبْ إلى مَدائنِ مُلْكِكَ فيَقْتُلوا مَنْ فيهم من اليَهود. فبينَمَا هُمْ عَلَى أمْرِهِمْ أُتِيَ هِرَقْلُ بِرَجُلٍ أرسَل بِهِ مِلكُ غَسَّانَ يُخبِرُ عَنْ خَبَر

رسولِ اللهِ ﷺ. فَلَمَّا استَخبرَهُ هرَقْلُ قالَ: اذهَبُوا فَانْظُرُوا أَمُخْتَتِنٌ هو أَمْ لا؟ فَنَظَروا إليه ، فَحَدَّثُوهُ أَنَّهُ مُخْتَتِنٌ، وسَأَلَهُ عَنِ العربِ فقالَ: هُم يَخْتَتِنُونَ. فقال هَرَقْلُ: هَذَا مُلكُ هذهِ الأمة قد ظَهَرَ. ثمّ كتب هرقْلُ إلى صَاحِبٍ لَهُ بِرُومِيَةَ ، وكَانَ نَظيرَهُ في العلْم. وسار هِرَقْلُ إلى حِمْصَ، فلم يرِمْ حِمْصَ حتى أَتَاهُ كِتَابٌ مِنْ صاحِبِهِ يُوَافِقُ رَأْيَ هِرَقْلَ على خروجِ النبيِّ ﷺ وأنَّهُ نبيٌّ. فأذنَ هِرَقْلُ لِعُظَمَاءِ الرُّوم في دسْكَرَةٍ له بحِمْصَ، ثُمَّ أَمَرَ بَأَبْوَابِهَا فَغُلِّقَتْ، ثُمَّ اطَّلَعَ فَقَالَ: يامَعْشَرَ الرُّوم ، هَلْ لَكُمْ فى الفَلاحِ والرُّشْدِ وأنْ يَثْبُتَ مُلْكُكُمْ فَتُبايعوا هذا النَّبي؟ فَحاصُوا حَيْصَةَ حُمُرِ الوَحْشِ إلى الأبْوابِ فَوَجدُوهَا قَدْ غُلِّقَتْ، فَلَمَّا رَأى هرقلُ نَفْرَتَهُمْ وأَيِسَ مِنَ الإيمانِ قالَ: رُدُّوهُمْ عَلَيَّ .وقَالَ: إنّي قُلتُ مَقَالَتِي آنفًا أختَبِرُ بها شِدَّتَكُمْ على دينكُمْ ، فَقَدْ رَأَيْتُ. فَسَجدُوا له ورَضُوا عَنْهُ، فكانَ ذلكَ آخِرَ شَأنِ هِرَقْلَ.

[الحديث : ٧- أطرافه في : ٥١، ٢٦٨١، ٢٨٠٤، ٢٩٤١، ٢٩٧٨، ٣١٧٤، ٤٥٥٣، ٥٩٨٠، ٦٢٦٠، ٧١٦٩، ٧٥٤١]

قوله (هِرَقْل) هو ملك الروم، وهرقل اسمه، ولقبه قيصر، كما يلقب ملك الفرس كسرى ونحوه.

قوله (في ركب) جمع راكب كصحب وصاحب، وهم أولو الإبل، العشرة فما فوقها. والمعنى أرسل إلى أبي سفيان حال كونه في جملة الركب، وذلك لأنه كان كبيرهم فلهذا خصه.

قوله (في المدة) يعني مدة الصلح بالحديبية، وسيأتي شرحها في المغازي[1] ، وكانت في سنة ست، وكانت مدتها عشر سنين كما في السيرة.

قوله (فوالله لولا الحياء من أن يأثروا) أي ينقلوا عليَّ الكذاب لكذبت عليه. وفيه دليل على أنهم كانوا يستقبحون الكذب إما بالأخذ عن الشرع السابق، أو بالعرف. وفي رواية ابن اسحق التصريح بذلك ولفظه «فوالله لو قد كذبت ما ردوا علي، ولكن كنت امرءا سيدا أتكرم عن الكذب، وعلمت أن أيسر ما في ذلك إن أنا كذبته أن يحفظوا ذلك عني ثم يتحدثوا به، فلم أكذبه.

قوله (كيف نسبه فيكم) ؟ أي ما حال نسبه فيكم، أهو من أشرافكم أم لا ؟.

قوله (فأشراف الناس اتبعوه)[2] والمراد بالأشراف هنا أهل النخوة والتكبر منهم، لا كل شريف، حتى لا يرد مثل أبي بكر وعمر وأمثالهما ممن أسلم قبل هذا السؤال.

قوله (سجال) أي نوب والسجل: الدلو، وينال أي يصيب، فكأنه شبّه المحاربين

(١) كتاب المغازي باب /٣٥ ج ٧١٤٧ - ٣ / ٣٣٥.
(٢) رواية الباب واليونينية "يتبعونه"

بالمستقِيَين، يستقي هذا دلواً، وهذا دلواً وأشار أبو سفيان بذلك إلى ما وقع بينهم في غزوة بدر وغزوة أحد.

قوله (واتركوا ما يقول آباؤكم) هي كلمة جامعة لترك ما كانوا عليه في الجاهلية، وإنما ذكر الآباء تنبيها على عذرهم في مخالفتهم له، لأن الآباء قدوة عند الفريقين، أي عبدة الأوثان والنصارى.

قوله (فذكرت أن ضعفاءهم اتبعوه) معناه أن أتباع الرسل في الغالب أهل الاستكانة لا أهل الاستكبار الذين أصروا على الشقاق بغيا وحسدا كأبي جهل وأشياعه، إلى أن أهلكهم الله تعالى، وأنقذ بعد حين من أراد سعادته منهم.

قوله (وكذلك الإيمان) أي أمر الإيمان، لأنه يظهر نورا، ثم لايزال في زيادة حتى يتم بالأمور المعتبرة فيه من صلاة وزكاة وصيام وغيرها، ولهذا نزلت في آخر سِنِيّ النبي ﷺ {اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي} ومنه {ويأبى الله إلا أن يتم نوره } وكذا جرى لأتباع النبي ﷺ: لم يزالوا في زيادة حتى كمل بهم ما أراد الله من إظهار دينه وتمام نعمته، فله الحمد والمنة.

قوله (حين يخالط[1] بشاشة القلوب) أي يخالط الإيمان انشراح الصدور.

قوله (وكذلك الرسل لاتغدر) لأنها لا تطلب حظ الدنيا الذي لايبالي طالبه بالغدر، بخلاف من طلب الآخرة.

قوله (أخلص) أي أصِل.

قوله (لتجشّمت) أي تكلفت الوصول إليه، وهذا يدل على أنه كان يتحقق أنه لايَسْلَم من القتل إن هاجر إلى النبي ﷺ.

قوله (دِحْية) ويقال إنه الرئيس بلغة أهل اليمن، وهو ابن خليفة الكلبي، صحابي جليل كان أحسنَ الناس وجها، وأسلم قديماً، وبعثه النبي ﷺ في آخر سنة ست بعد أن رجع من الحديبية بكتابه إلى هرقل، وكان وصوله إلى هرقل في المحرم سنة سبع، قاله الواقدي. ووقع في تاريخ خليفة أن إرسال الكتاب إلى هرقل كان سنة خمس، والأول أثبت.

قوله (من محمد) فيه أن السنة أن يبدأ الكتاب بنفسه، وهو قول الجمهور، بل حكى فيه النحاس إجماع الصحابة. والحق إثبات الخلاف.

قوله (عظيم الروم) فيه عدول عن ذكره بالملك أو الإمرة، لأنه معزول بحكم الإسلام، لكنه لم يخله من إكرام لمصلحة التألف. وفي حديث دحية أن ابن أخي قيصر أنكر أيضا كونه لم يقل ملك الروم.

(١) رواية الباب واليونينية «تخالط».

قوله (سلام على من اتبع الهدى) وقد ذكرت في قصة موسى وهارون مع فرعون، وظاهر السياق يدل على أنه من جملة ما أمرا به أن يقولاه. فان قيل: كيف يبدأ الكافر بالسلام؟ فالجواب أن المفسرين قالوا: ليس المراد من هذا التحية، انما معناه سلم من عذاب الله من أسلم. ولهذا جاء بعده أن العذاب على من كذب وتولى. وكذا جاء في بقية هذا الكتاب «فان توليت فإن عليك إثم الآريسيين». فمحصل الجواب أنه لم يبدأ الكافر بالسلام قصداً وإن كان اللفظ يشعر به، لكنه لم يدخل في المراد لأنه ليس ممن اتبع الهدى فلم يسلم عليه.

قوله (فإن توليت) أي أعرضت عن الإجابة إلى الدخول في الإسلام.

قوله (الأريسيين) هو جمع أريسي، قال ابن سيده: الأريس: الأكّار، أي الفلاّح عند ثعلب، ويؤيده أيضا ما في رواية المدائني من طريق مرسلة «فان عليك إثم الفلاحين»، وكذا عند أبي عبيد في كتاب الأموال من مرسل عبدالله بن شداد «وإن لم تدخل في الاسلام فلا تحل بين الفلاحين وبين الاسلام» قال أبو عبيدة: المراد بالفلاحين أهل مملكته، لأن كل من كان يزرع فهو عند العرب فلاح، سواء كان يلي ذلك بنفسه أو بغيره. قال الخطابي: أراد أن عليك إثم الضعفاء والأتباع اذا لم يسلموا تقليداً له، لأن الأصاغر أتباع الأكابر. قلت: وفي الكلام حذف دل المعنى عليه وهو: فإنَّ عليك مع إثمك إثم الأريسيين، لأنه إذا كان عليه إثم الأتباع بسبب أنهم تبعوه على استمرار الكفر فلأن يكون عليه إثم نفسه أولى، وهذا يعد من مفهوم الموافقة، ولايعارض بقوله تعالى {ولاتزر وازرة وزرأخرى} لأن وزرالآثم لا يتحمله غيره، ولكن الفاعل المتسبب والمتلبس بالسيئات يتحمل من جهتين جهة فعله وجهة تسببه.

(فائدة) : قيل في هذا دليل على جواز قراءة الجنب للآية أو الآيتين، وبإرسال بعض القرآن إلى أرض العدو وكذا بالسفر به. وأغرب ابن بطال فادعى أن ذلك نسخ بالنهي عن السفر بالقرآن إلى أرض العدو ويحتاج إلى إثبات التاريخ بذلك. ويحتمل أن يقال: إن المراد بالقرآن في حديث النهي عن السفر به أي المصحف، وسيأتي الكلام على ذلك في موضعه. وأما الجنب فيحتمل أن يقال إذا لم يقصد التلاوة جاز، على أن في الاستدلال بذلك من هذه القصة نظرا، فإنها واقعة عين لا عموم فيها، فيقيد الجواز على ما إذا وقع احتياج إلى ذلك كالإبلاغ والإنذار كما في هذه القصة، وأما الجواز مطلقاً حيث لا ضرورة فلا يتجه، وسيأتي مزيد لذلك في كتاب الطهارة إن شاء الله تعالى.

قوله (أمِر) أي عظُم.

قوله (صاحب إيلياء) أي أميرها.

قوله (خبيث النفس) أي رديء النفس غير طيبها، أي مهموما. وقد تستعمل في كسل النفس، وفي الصحيح «لايقولن أحدكم خبثت نفسي» كأنه كره اللفظ، والمراد بالخطاب المسلمون، وأما في حق هرقل فغير ممتنع.

قوله (حزاء) أي كاهنا، فالكهانة تارة تستند إلى إلقاء الشياطين وتارة تستفاد من أحكام النجوم، وكان كل من الأمرين في الجاهلية شائعا ذائعا، إلى أن أظهر الله الاسلام فانكسرت شوكتهم وأنكر الشرع الاعتماد عليهم.

قوله (قد ظهر) أي غلب، يعني دله نظره في حكم النجوم على أن ملك الختان قد غلب، وهو كما قال، لأن في تلك الأيام كان ابتداء ظهور النبي ﷺ إذ صالح كفار مكة بالحديبية وأنزل الله تعالى عليه { إنا فتحنا لك فتحا مبينا} إذ فتح مكة كان سببه نقض قريش العهد الذي كان بينهم بالحديبية، ومقدمة الظهور ظهور.

قوله (من هذه الأمة) أي من أهل هذا العصر.

قوله (برومية) وهي مدينة معروفة للروم.

قوله (فلم يرم) أي لم يبرح من مكانه.

قوله (حتى أتاه كتاب من صاحبه) وفي حديث دحية الذي أشرت اليه قال: فلما خرجوا أدخلني عليه وأرسل إلى الأسقف وهو صاحب أمرهم فقال: هذا الذي كنا ننتظر، وبشرنا به عيسى، أما أنا فمصدقه ومتبعه. فقال له قيصر: أما أنا إن فعلت ذلك ذهب ملكي، فذكر القصة، وفي آخره: فقال لي الأسقف: خذ هذا الكتاب واذهب إلى صاحبك فاقرأ عليه السلام وأخبره أني أشهد أن لا إله إلاّ الله وأن محمدا رسول الله، وأني قد آمنت به وصدقته، وأنهم قد أنكروا علي ذلك. ثم خرج اليهم فقتلوه. وفي رواية ابن اسحق أن هرقل أرسل دحية إلى ضغاطر الرومي وقال: إنه في الروم أجوز قولا مني، وإن ضغاطر المذكور أظهر إسلامه وألقى ثيابه التي كانت عليه ولبس ثياباً بيضا وخرج على الروم فدعاهم إلى الإسلام وشهد شهادة الحق، فقاموا اليه فضربوه حتى قتلوه. قال فلما رجع دحية إلى هرقل قال له: قد قلت لك إنا نخافهم على أنفسنا، فضغاطر كان أعظم عندهم مني، قلت: فيحتمل أن يكون هو صاحب رومية الذي أبهم هنا، لكن يعكر عليه ما قيل إن دحية لم يقدم على هرقل بهذا الكتاب المكتوب في سنة الحديبية، وإنما قدم عليه بالكتاب المكتوب في غزوة تبوك، فالراجح أن دحية قدم على هرقل أيضا في الأولى، فعلى هذا يحتمل أن تكون وقعت لكل من الأسقف ومن ضغاطر قصة قتل كل منهما بسببها، أو وقعت لضغاطر قصتان إحداهما التي ذكرها ابن الناطور وليس فيها أنه أسلم ولا أنه قتل، والثانية التي ذكرها ابن اسحق فان فيها قصته مع دحية وأنه أسلم وقتل والله أعلم.

قوله (وسارهِرَقْل إلى حمص) لأنها كانت دار ملكه كما قدمناه، وكانت في زمانهم أعظم من دمشق. وكان فتحها على يد أبي عبيدة بن الجراح سنة ست عشرة بعد هذه القصة بعشر سنين.

قوله (وأنه نبي) يدل على أن هرقل وصاحبه أقرا بنبوة نبينا ﷺ، لكن هرقل كما ذكرنا لم يستمر على ذلك بخلاف صاحبه.

قوله (والرشد) بفتحتين (وأن يثبت ملككم) لأنهم إن تمادوا على الكفر كان سببا لذهاب ملكهم، كما عرف هو ذلك من الأخبار السابقة.

قوله (فحاصوا) أي نفروا، وشبههم بالوحوش لأن نفرتها أشد من نفرة البهائم الإنسية، وشبههم بالحمر دون غيرها من الوحوش لمناسبة الجهل وعدم الفطنة بل هم أضل.

قوله (من الإيمان) أي من إيمانهم لما أظهروه، ومن إيمانه لأنه شح بملكه كما قدمنا، وكان يحب أن يطيعوه فيستمر ملكه ويسلم ويسلموا بإسلامهم، فما أيس من الإيمان إلا بالشرط الذي أراده، وإلا فقد كان قادرا على أن يفر عنهم ويترك ملكه رغبة فيما عند الله والله الموفق.

قوله (آنفا) أي قريبا.

(تنبيه) لما كان أمر هرقل في الإيمان عند كثير من الناس مستبهما، لأنه يحتمل أن يكون عدم تصريحه بالإيمان للخوف على نفسه من القتل، ويحتمل أن يكون استمر على الشك حتى مات كافرا، وقال الراوي في آخر القصة فكان ذلك آخر شأن هرقل. ختم البخاري هذا الباب الذي استفتحه بحديث الأعمال بالنيات، كأنه قال إن صدقت نيته انتفع بها في الجملة، وإلا فقد خاب وخسر. فظهرت مناسبة إيراد قصة ابن الناطور في بدء الوحي لمناسبتها حديث الأعمال المصدر الباب به. ويؤخذ للمصنف من آخر لفظ في القصة براعة الاختتام، وهو واضح مما قررناه، فان قيل: ما مناسبة حديث أبي سفيان في قصة هرقل ببدء الوحي؟ فالجواب أنها تضمنت كيفية حال الناس مع النبي ﷺ { إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح} الآية. وقال تعالى{ شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا} الآية ، فبان أنه أوحى اليهم كلهم أن أقيموا الدين، وهو معنى قوله تعالى { سواء بيننا وبينكم} الآية.